

الثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المُقسِم أو يجعله وهو فوقه، والله تعالى ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته؛ لأنها تدلُّ على باريِّ وصانع.

وقال ابن أبي الإصبع في «أسرار الفواتح»: القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع؛ لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل؛ إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.

وأخرج ابن أبي حاتم^(١) عن الحسن قال: إن الله يُقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله.

وقال العلماء: أقسم الله تعالى بالنبي ﷺ في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لتعرف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: ما خلق الله ولا ذراً ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحدٍ غيره، قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ بِعَمُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

وقال أبو القاسم القشيري: القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين: إما لفضيلة أو لمنفعة. فالفضيلة، كقوله: ﴿وَطُورٍ سِينِينَ﴾ ① وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ②، والمنفعة، نحو: ﴿وَاللَّيْلِ وَاللَّيْتُونَ﴾ [التين: ١ - ٣].

وقال غيره: أقسم الله تعالى بثلاثة أشياء؛ بذاته كآيات السابقة، وبفعله، نحو: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ ③ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ④ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑤ [الشمس: ٥ - ٧]، وبمفعوله، نحو: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، ﴿وَالطُّورِ﴾ ⑥ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ⑦ [الطور: ١، ٢].

والقسم: إما ظاهر كآيات السابقة، وإما مضمرة، وهو قسمان: قسم دلت عليه اللام، نحو: ﴿تُسَبِّحُونَ فِي آَمْوَالِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقسم دل عليه المعنى، نحو: ﴿وَإِنْ يَنْكُرْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]؛ تقديره: (والله).

وقال أبو عليّ الفارسي: الألفاظ الجارية مجرى القسم ضربان:

أحدهما: ما تكون كغيرها من الأخبار التي ليست بقسم، فلا تجاب بجوابه كقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُدُودًا﴾ [البقرة: ٦٣]، ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمُ﴾ [المجادلة: ١٨]، وهذا ونحوه يجوز أن يكون قسماً، وأن يكون حالاً، لخلوه من الجواب.

والثاني: ما يتلقى بجواب القسم، كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣].

وقال غيره: أكثر الأقسام في القرآن المحذوفة الفعل لا تكون إلا بالواو، فإذا ذكرت الباء أتت بالفعل، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ [النور: ٥٣]، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٢]، ولا تجد الباء مع حذف الفعل. ومن ثمَّ كان خطأ من جعل قسماً ﴿بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ [الزخرف: ٤٩]، ﴿يَحِقُّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ [المائدة: ١١٦].

(١) انظر أوائل السور القصار التي فيها القسم من تفسيره.

وقال ابن القيم: اعلم أنه سبحانه وتعالى يُقسم بأمر على أمور، وإنما يقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته. وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنها من عظيم آياته، فالقسم إما على جملة خبرية وهو الغالب، كقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، وإما على جملة طلبية كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلْهُنَّ أجمعين﴾ ﴿٦٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَمْلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. مع أن هذا القسم قد يُراد به تحقيق المقسم عليه، فيكون من باب الخبر، وقد يراد به تحقيق القسم؛ فالمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون ممّا يحسن فيه، وذلك كالأمر الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها؛ فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر، والليل والنهار، السماء والأرض، فهذه يُقسم بها ولا يقسم عليها، وما أقسم عليه الربُّ فهو من آياته، فيجوز أن يكون مقسماً به ولا ينعكس، وهو سبحانه وتعالى يذكر جواب القسم تارة وهو الغالب، ويحذفه أخرى؛ كما يحذف جواب ﴿لَوْ﴾ كثيراً للعلم به.

والقسم: لما كان يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف، ويكتفى بالباء، ثم عوض من الباء الواو في الأسماء الظاهرة، والتاء في اسم الله تعالى، كقوله: ﴿وَتَأَلَّهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَعُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

قال: ثم هو سبحانه وتعالى يقسم على أصول الإيمان التي تجب على الخلق معرفتها؛ تارة يقسم على التوحيد، وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة يقسم على حال الإنسان.

فالأول: كقوله: ﴿وَالصَّبْرَ صَفَاءً﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصفات: ١ - ٤].
والثاني: كقوله: ﴿فَلَا أَمْسُ يَمَوْعِجُ النَّجْوَى﴾ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَفَسُّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٧].

والثالث: كقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١ - ٣]، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ...﴾ ﴿٢﴾ الآيات [النجم: ١ - ٢].

والرابع: كقوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ١ - ٦]، ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: ١ - ٧].

والخامس: كقوله: ﴿وَأَلِيلَ إِذَا يَمْسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعِيرًا لَّنَشَقَّى﴾ ... [الليل: ٤]، ﴿وَالنَّوْدِيَّتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ١ - ٦]. ﴿وَالنَّصْرِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسِرٍ ...﴾ [العصر: ١، ٢]، ﴿وَاللَّيْلِ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ... الآيات [التين: ٤]، ﴿لَا أُنْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

قال: وأكثر ما يُحذف الجواب إذا كان في نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه؛ فإن المقصود يحصل بذكره، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز، كقوله: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، فإن في المقسم به من تعظيم القرآن، ووصفه بأنه (ذو الذكر) المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه

والشرف والقدر، ما يدلُّ على المقسَم عليه، وهو: كونه حقًّا من عند الله غير مفتَرى كما يقول الكافرون، ولهذا قال كثيرون: إن تقدير الجواب: (إن القرآن لحق). وهذا مَطْرَدٌ في كل ما شابه ذلك، كقوله: ﴿فَ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وقوله: ﴿لَا أُقِيمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١]. فإنه يتضمَّن إثبات المعاد، وقوله: ﴿وَالْفَجْرِ . . .﴾ الآيات؛ فإنها أزمانٌ تتضمَّن أفعالاً مُعظَّمة من المناسك وشعائر الحج، التي هي عبودية محضة لله تعالى وذُلٌّ وخضوع لعظمته، وفي ذلك تعظيم ما جاء به محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

قال: ومن لطائف القَسَم قوله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ ١﴾ وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَىٰ . . .﴾ الآيات؛ أقسم تعالى على إنعامه على رسوله وإكرامه له؛ وذلك متضمَّن لتصديقه له فهو قسم على صحة نبوته وعلى جزائه في الآخرة، فهو قَسَم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته. وتأمل مطابقة هذا القَسَم - وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل المقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمداً ربُّه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

